

اجتهادات قصة متكررة

كم من بلدان وأوطان فقدت مبدعين وعلماء كان ممكنا أن يساهموا في تقدمها وازدهارها بسبب ظلم وقع عليهم ولم يتحملوه، فشدوا الرحال وهاجروا. وهذه قصة قديمة ومتكررة نستذكرها في الذكرى الستين لرحيل الشاعر الكبير إيليا أبو ماضي، التي حلت أول أمس.

مبدع ظهرت موهبته الشعرية مبكرا جدا في موطنه لبنان. كان يفيض حماسا وحيوية، ويُبشّر بقيمة ثقافية كبيرة. لم يجد فرصة في لبنان، فتوجه إلى مصر عام 1902، في وقت كانت القاهرة قبلة مثقفين عرب من بلدان عدة، وخاصة من المشرق العربي، حيث كان القمع العثماني على أشده.

وبعد أن نشر الكثير من القصائد في مجلات أدبية، أصدر ديوان تذكاري الماضي الذي ترك مصر بعده مباشرة، وهاجر إلى الولايات المتحدة. وتوجد روايتان حول السبب الذي دفعه إلى الهجرة. تقول الرواية الأولى إن هذا الديوان كان ضعيفا، رغم أن أحدا لم يجد نسخة منه، فاشتد نقد الناقدين له. ويقال إن د. طه حسين كان أحد من هاجموه. ووفق هذه الرواية، أصابه الهجوم على ديوانه بإحباط وحزن، فقرر الهجرة إلى الولايات المتحدة.

أما الرواية الثانية فتقول إن قصائده الوطنية والسياسية والاجتماعية، التي ضم الديوان المشار إليه مجموعة منها حول الظلم والفقر والطغيان العثماني، أدت إلى التضيق عليه، فقرر أن يترك المنطقة كلها ويبحث عن فرصة في وضع أكثر حرية.

وسواء صحت هذه الرواية أو تلك، أو كانت الحقيقة في مزيج منهما، فالدرس أن لبنان ومصر خسرتا مبدعا عظيما شعر بوطأة الظلم، سواء لأن نقادا لم يصبروا على موهبته إلى أن تنضج، أو لأن القمع يحرم الأوطان من قدرات إبداعية0 فقد رحل إلى الولايات المتحدة، وساهم في تأسيس مدرسة شعراء المهجر مع شعراء عظام مثل جبران خليل جبران، وميخائيل نعيمة.

يتميز شعره بالعمق والسلاسة في آن معا، وكان من أوائل الشعراء الذين انتبهوا إلى خطر التعصب الطائفي، ونبهوا إليه، ودعوا إلى التعايش على أساس إنساني، ونشروا الأمل والتفاؤل، وحثوا على التمسك بهما مهما كثرت الشدائد، واشتدت المحن.

ويحفل أكثر شعره بتأملات ذات طابع فلسفي في ظواهر لم يكف عن التفكير فيها، من الكون والوجود والطبيعة والحياة، إلى الحب والعشق، مروراً بالمجتمع والسياسة.